غمط حق الكفاءات العراقية هدف آخر للغزو

تعددت أسماء الغزو الأمريكي لإحتلال العراق ، فبين إسم عملية حرية العراق وإسقاط الدكتاتورية ، ضاعت مفاهيم الحرب العلمية ، مثلما غابت مرتكزات الرؤية الفكرية والسياسية الأمريكية ، في عصر العولمة المنفردة . وباتت الدولة العراقية هي الهدف الذي ينبغي التسديد عليه من لدن كل الأقلام السائرة في فلك الرؤية المضادة لروحية الوطن العربي ، والمناوئة لطموحات الشعب العربي في التحرير والوحدة والتقدم ، والمعادين لمستقبل الدولة العراقية وفقاً لمفاهيم الدولة العلمية ، وتساوى في ذلك تمزيق تاريخه ونهب محتويات متحفه وحرق مكتباته وتخريب جامعاته ، مع نزعة الإدانات المتتالية لطبيعة الشعب العراقي العقلية التي تفرز ــ دائماً ــ التسلط والتفرد والهيمنة المطلقة ، بحجة التحدث عن صدام حسين **، من دون أنْ يسأل أحدٌ ما عن دوره في رسم معالم مجريات الحاضر ومآلات الوضع الراهن والمسؤولية عن الماضي القريب** . إنها تراجيدية مضحكة حقاً .

ما ينيف عن الثلاثين عاماً من حكم الدولة العراقية تحت قيادة حزب البعث العربي الإشتراكي ، لم تكن هناك خطوات مشتركة عند المجموع الوطني ، كما يبدو . وليس هناك أخطاء سياسية ــ والأخطاء السياسية هي أكبر من الجرائم كما هو معلوم ــ **إلاّ لدى السلطة العراقية والحزب الحاكم** . أما ما هو دور ((المعارضة الأصيلة)) في تلك الفترة ، سيما التي إتفقت مع الحكم في توجهاته السياسية ، منذ إتفاقية 11 آذار عام 1970 ، وميثاق الجبهة الوطنية التقدمية عام 1973 ، وصفقات الإتفاق بين بعض الأطراف ((الوطنية والسلطة)) وما هي أدوار مَنْ إتفق مع العدو الأجنبي كإسرائيل وقاموا بزيارة تل أبيب ، ورهنوا أوراقهم عند طهران الشاه السابق ، وتوافقوا مع واشنطن ولندن في الرؤية والموقف ، ونسقوا على كل الصُعد مع سلطات الجوار الأمنية ، بغية تحقيق أهداف القيادات السياسية ، فأمره في دفتر الغيب وعند علاّم الغيوب . فالمطلوب راهناً نثر أغطية التضليل على موبقاته ، لأنَّ من شأن كشف المستور تمريغ سمعة ((المعارضة الأصيلة)) بوحل الخيانة التي سبقت للمباديء السياسية والفكرية الراهنة ، طالما تنتفي معايير التطور والتأخر ، والصعود والإرتداد ، والتقدم والتراجع . إنه ربيع الكذب وزهو التدليس وذروة النفاق . وليس هناك وقت لمحاسبة الأنا طالما يحاول البعضُ ((الحر والديمقراطي)) التمسح بالجوخ الأمريكي عبر ذم خصمه المنهار .

دولة الولايات المتحدة بقوتها العسكرية ، وقبضتها الخشنة التي لا تداري أو تماري ، أي غير الدبلوماسية كأسلوب مخاتل ، **حققت الإنتصار الساحق على العراق كدولة** . والدولة البريطانية بقبضتها الحريرية الناعمة ولكنها الماسكة قبضة السكين ونصلها الحاد ، ثأرت لقتلاها في العراق من الذين سقطوا إبان العام 1920 و1941 و1958 ــ أو إنتقمت لأرواح عملائها ــ فهل شفى كل ذلك غليلها الضمآن لحب تصفية الحساب ؟ ! . وكيان الإغتصاب الصهيوني أنجز مهمته الأثيرة على قلوب رواده المفكرين وساسته القواد ، الذين وضعوا العراق القديم : منذ نبوخذ نصر ، والحديث والمعاصر الذي إشترك في كل حروب العرب من أجل فلسطين درأً للحرب عليه ــ قبل أي شيء ــ وإستباقاً لمجريات هذه الأيام . . . وضعوه في دائرة

اِهتماماتهم القصوى . وربما كان الوحيد الذي لم يعترف بشرعية هذا الكيان رغم الترهيب الذي وجِّه للعراق أو الترغيب بتسيير شؤون المنطقة ، وكفى بذلك الموقف السياسي الوطني والقومي والحضاري الديني فخراً واِعتزازاً ، وثمناً يدفع لأجله ومقياساً للتقويم ، الذي كان جزءاً من أجزاء سعره سيقوم البعض بالزحف زحفاً على الوجه لا مشياً على الرأس . ألم يبع البعض ماضيه السياسي لقاء ثمن بخس للجلبي أو أسياده أو لأبطال مجزرة بشت آشان ؟ ! . .

الولايات المتحدة الأمريكية وشركاتها تقبض الثمن سريعاً ، فتعطي لمكوناتها الإقتصادية الأساسية تعهدات الإعمار في العراق ، وكان باكورة عملها ذاك هو تقديم عقد إصلاح ميناء أم قصر بمبلغ يتجاوز الستمائة مليون دولار لشركة بكتل الأمريكية ، في حين يعلن محللون ماليون وعسكريون أمريكيون إنَّ ((التعمير)) سيكلف مبالغ طائلة ، ولكن أحد المحللين يتوقع وصولها ما بين ((20 مليار إلى 30 مليار دولار سنوياً لمدة خمسة أعوام على الأقل)) أي تتراوح ما بين 100 إلى 150 مليار دولار ، فيما ((قدَّر مكتب الميزانية بالكونغرس الأمريكي تكاليف العراق بين 22,8 مليار دولار و45,6 مليار دولار في السنة الأولى وحدها ، بِافتراض وجود قوات 100 ألف و200 ألف جندي)) وإنَّ ما يُسمى بتحديث شبكة الكهرباء تصل إلى 12 مليار دولار تساوي الآن 17 مليار دولار)) .

فهل يدفع ذلك للتفكير بالواقع الراهن الذي تشير إليه المبالغ المذكورة ، سواء التي أعطيت أرقامها كعقود ، أو تلك التي ذُكرت كتقديرات ، والإستخلاص العلمي الذي ينبني عليه ، والذي يبين جيداً ، وبصورة واضحة ولا لبس فيها ، إنَّ المسألة ليست مسألة نظام دكتاتوري أو حرية مفقودة جلبتها القوة العالمية ((الرحيمة)) عند البعض الساذج البليد ؛ **<u>إنما القضية وما فيها قضية مصالح وليس مسألية مشاعر</u>** ؛ ويرسم محدداتها الرقمية ومخططاتها السياسية جهاز الكومبيوتر الذي لا يعرف للعواطف أية نسبة أخلاقية فيها ولها ، حتى وإنْ كانت متدنية ؟! .

ليفرح السادة الذين يدورون حول الحاكم الأمريكي الجديد الذي خصصته الحركة الصهيونية للعراق ، الذي لم تأنف عن تعنيفه بعض الأجهزة الأمريكية لعلانيته الصهيونية المكشوفة ، وليهنأ بعض حارقي البخور للمنقذين الأمريكيين والبريطانيين بمورِّد الديمقراطية إلى العراق : عراقهم لا عراق الماضي والحاضر والمستقبل ، عراق المجتمع العراقي الطامح للحياة الحرة فعلاً والسعيد حقاً ، لا العراق الذي يعيش تحت وطأة الشعارات الكاذبة . . . عراق التسامح والتسامي فوق الجراح والتكامل والإثراء والإستكمال والجمع ، لا عراق الإقصاء والإنتقام والنهب . وندعوهم لحظة للتفكير بين العدوان على العراق في عام 1991 الذي كان للتدمير : تدمير العراق كلياً ، لا لتحرير الكويت كما زعموا التي إستمرت ذرائعه حتى إندلاع العدوان الأخير ، من جهة ، وبين عدوان 2003 الذي جاء جهاراً نهاراً للإحتلال ومزاوجة الأهداف الإستعمارية : السيطرة العسكرية الكاملة ، والإمبريالية : الإستغلال الشامل والتسلط غير المباشر : خصوصاً الاقتصادي منه ، من جهة أخرى ، **<u>ليكتشفوا الفروق الملموسة بينهما</u>** ، إنْ كانوا مخلصين للوطن العراقي

وصادقين مع أنفسهم حول المقولات السياسية التي تشير بأخذ مصلحة المجتمع العراقي التاريخية بنظر الاعتبار ! ! . .

لقد إستهدف العدوان العسكري الأسبق كل البنية التحتية العراقية ، شبكات الري الأساسية ، ومنظومات المجاري ، وشبكات الهاتف ، ومراكز الكهرباء ومحطاتها الحرارية والمائية والغازية ، وكل مصافي النفط ، وبنايات الوزارات المختلفة ، و127 جسراً عملاقاً من مجموع 138 تشكل الجسور الأساسية في العراق ، ومؤسسات النقل ووسائلها ، وكل منشآت الجيش العراقي ومرافقه الحيوية : تدمير مصانع الأسلحة التقليدية والأسلحة الكيميائية والمعامل البيولوجية ، وعدد وعتاد سلاحه الجوي ، والمصانع الكبيرة بما فيها المفاعل النووي العراقي و12 مصنعاً كبيراً للبتروكيماويات وإجتثاث كل الصناعات التي تدعم البنية العسكرية والمزارع الواسعة ومجمعات الثروة الحيوانية ، ومكافحة الآفات التي عملت الإدارة الأمريكية الجمهورية والديمقراطية على نشرها . . . **أي جرى تدمير الدولة العراقية كلها** ، بما فيها من إعمار وتقدم وإزدهار ، على ضوء الإصرار الأمريكي بإرجاع العراق القهقرى إلى خمسمائة عام من التخلف والتأخر ، إلى العصر الحجري ، كما قال جيمس بيكر وزير خارجية أمريكا آنذاك ، وأكد كولن باول رئيس أركان الجيش الأمريكي آنذاك ووزير الخارجية الحالي ، ووفقاً لتعليقٍ موحٍ على تقرير أعدته لجنة خاصة في الأمم المتحدة إنَّ ما إحتواه هو ((حقائق تومىء أكثر من غيرها إلى هدف الحرب فيما يتعلق بالعراق كدولة ، وفيما يتعلق بشعبه كبشر)) فيما قال مؤرخان بريطانيان إلى عملية الدمار الكلي والتحطيم الشامل لا ((يمكن وصفها إلا بأنها محاولة لتمزيق مجتمع بأسره وليس مجرد قواته المسلحة)) . .

ولكن الكادر العلمي العراقي أصلح غالبية ما دمره العتاة الأشرار ، وتحت شعار ((تباً للمستحيل)) تم إنجاز معجزة العصر خلال سنتين ونيف ، في ظل حصار غير مسبق في التاريخ على كل ما يستورده العراق من مواد إحتياطية تسهم في سد النواقص التي تحتاجه عمليات الإعمار ، بذريعة إحتمالات الإستخدام المزدوج للبضاعة التي يدفع ثمنها العراق ، التي يشرف على توريدها صندوق خاص تابع الأمم المتحدة ـــ كما يقال ـــ فأصلح شبكات الهاتف والمجاري وأعاد القدرة الكهربائية ومحطات الطاقة . . . بإختصار أصلح كلَ شيء يخدم الدولة العراقية : الأداة الناظمة لجهود المجتمع العراقي والوطن العراقي والحكومة العراقية وقام بتنشيط مشروع إباء الزراعي الإصلاحي الكبير الهائل ، فضلاً عن كل ذلك ، وغيره الكثير .

ولكننا اليوم نرى المنتصرين الأمريكيين الذين جاؤوا للإحتلال الذي يقتضي ـــ أولاً وأخيراً ـــ الحفاظ على بنية الدولة ومرافقها ومؤسساتها قائمة تعمل بصورة سليمة ، ما أمكن ذلك ، وتجنيبها التدمير والتحطيم ، بغية بقاء بناء مكونات السلطة السياسية التحتية والعمرانية تخدم توجهات إحتلالهم . . . نراهم يعطون شركاتهم المبالغ الخيالية لإصلاح ما دمره الجيش الأمريكي بأسلحة الدمار الشامل وغيرها من أنواع الأسلحة المتطورة ، وإعمار ما خربوه وهدموه بقسوة غير مسبوقة ، ومتى تقدم هذه العطاءات المجزية على ضوء المصلحة الأمريكية أولاً وأخيراً ؟ .

يعطون مقاولات الإعمار بكرم وأريحية لشركاتهم ، في زمن اِكتساب العراقيين من مهندسين وكوادر عاملة وخبراء وعمال وشغيلة . . . اِكتسابهم الخبرة اللازمة للإصلاح والإعمار في كل المجالات ، فلماذا لا تجري الإشارة إلى الكفاءات العراقية في هذا المجال ، ولماذا يحاول الأمريكيون ((تناسي)) المؤسسات التعميرية الكبيرة التي يشكل العراقيون كوادرها وعمادها ، وكذلك لماذا ((يتجاهلون)) هذا القطاع الرائد في التحديث والتطوير وشركاته العملاقة التي أثبتت فاعليتها في معظم المجالات الخدمية والتحتية الفاعلة ؟ ! ! .

2003 / 4 / 29

باقر الصرّاف
كاتب عراقي مقيم في هولندا